

## الموت بين العاطفة والخيال

### ابن الأنباري يرثي ابن بقية

د. سهيل محمد خصاونة

#### مقدمة

واجه الإنسان الموت قديمًا وحديثًا بطرق شتى، ووسائل مختلفة، وظل الموت هو المنتصر في الأغلب الأعم .

تصدى الإنسان للموت بالشعر، فكان لبعض القصائد خصوصية بمعنى الكلمة، وهذه القصيدة واحدة من تلك، فلقد نالت قصيدة ابن الأنباري في رثاء ابن بقية شهرة واسعة عند أهل زمانها، حتى قيل بحقيها: إنه لم يُعمل في بابها مثلها.

القصيدة مواجهة كبرى مع الموت، ومواجهة كبرى مع العاطفة الإنسانية، ومواجهة مع الخيال، والشعر الحق مواجهة .

موت ابن بقية كان مواجهة، وعلى مراحل، فبدأ معنويًا بعد سمل العينين على يد وليّ النعمة، وتطوّر إلى موت مهين تحت أرجل الفيلة على يد العدو اللئيم، وانتهى صلبًا على الأعواد في الفضاء .

عاطفة الشاعر صادقة مخلصة تتوهج، والخيال يستمد وقوده من لظى العاطفة، وبين حرارة العاطفة وجمال الصورة، سقط عضد الدولة منتحرًا بفتنة الجمال، فتمنى لو كان هو المقتول الذي قيلت بحقه هذه المرثاة .

هذه القصيدة حالة خاصة من الوجد المشتعل، فيها القلب يتفطر، والمشاعر تتلظى، لكن بإرادة أبيّة، وكبرياء متوقدة، فانعكس ذلك على طبيعة الصورة فيها؛ فهي متماسكة لا تعرف الاهتزاز والتصدع، شامخة مرفوعة الرأس رافضة، تقول: «لا» .

والقصيدة في مضمونها العام موقفٌ مشرف، ومبدأ راسخ، وقيمة في الوفاء والإخلاص، وهي جولة ناجحة بالتأكيد للشعر في وقوفه أمام الموت والفناء، خرجت من القلب، فدخلت إلى كل قلب، ليس بينها وبين متلقيها حجاب.

تسعى هذه الدراسة لتبَيّن خصوصية الرثاء ومواجهة الموت في قصيدة ابن الأنباري<sup>(\*)</sup>، التي رثى بها ابن بقية، وذلك من خلال العلاقة بين العاطفة

(\*) ابن الأنباري: هو محمد بن عمر بن يعقوب، أبو الحسن الأنباري، ولا تاريخ محدد لميلاده. لكنه من أبناء القرن الرابع الهجري، وتفاصيل حياته نزره محدودة أيضاً، من مثل: هو شاعر مُقلِّد من الكتاب، وهو أحد العدول في بغداد. وشهرته كما يبدو مرتبطة بقصيدته الثائية التي هي محط دراستنا، والتي قالها كما أسلفنا بابن بقية صديقه الحميم، وقد أكد صداقته هذه في إجابته عضد الدولة عندما سأله عن سبب رثائه ابن بقية، حيث قال: حقوق سلفت، وأيادٍ مضت، فجاش الحزن في قلبي فرثيت<sup>(١)</sup>. والحق أن ابن الأنباري رثى ابن بقية مرتين: الأولى، بهذه القصيدة الثائية - موضوع بحثنا - وقد قالها بعد صلبه، ورفعها على الأعواد ومطلعها:

عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ لِحَقِّ أَنْتِ إِحْدَى الْمَعْجِزَاتِ

والثانية: مقطوعة قالها بعد إنزاله ودفنه في التراب، وذلك بعد موت عضد الدولة،

=

وقد قال فيها:

والخيال فيها، فالرثاء له في هذه القصيدة نكهة خاصة، وطعم مميز .

وردت قصيدة ابن الأنباري في رثاء ابن بقية<sup>(\*)</sup> في مصادر متعددة، فقد ذكرها الثعالبي في يتيمة الدهر، وابن خلكان في وفيات الأعيان، وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة، وقد اختلف ترتيب أبياتها في النجوم الزاهرة اختلافاً بسيطاً، أما في كتاب الثعالبي، « أحسن ما سمعت » ، فقد جاءت القصيدة ناقصة أربعة

= لم يلحقوا بك عازراً إذ صلبت بلى  
 بأؤوا ياثمك ثم استرجعوا ندما  
 وأيقنوا أنهم في فعلهم غلطوا  
 وأنهم نصبوا من سؤدد علما  
 فاسترجعوا وواروا منك طود علا  
 بدفنه دفنوا الإفضال والكرما  
 لكن بليت فلا يبلى نذاك ولا  
 ينسى وكم هالك يُنسى إذا عُدما  
 تقاسم الناس حسن الذكر فيك كما  
 مازال مالك بين الناس منقسماً<sup>(١)</sup>

(\*) ابن بقية: هو محمد بن محمد بن بقية بن علي، الملقب ب(نصير الدولة)، وزير عز الدولة بختيار بن معز الدولة البويهبي.

ابتدأ حياته في مطبخ معز الدولة البويهبي والد عز الدولة، ثم تطورت حاله بعد موت معز الدولة، فصار وزيراً عند عز الدولة، يساعده في ذلك خلقه الحسن، وصدره الواسع، وكرمه الذائع .

لكن العلاقة ساءت بين عز الدولة ووزيره ابن بقية بعد انكسار الأول في موقعة حرزية خاضها مقاتلاً ابن عمه عضد الدولة، عزا سبب هزيمته فيها لرأي ابن بقية ومشورته، فقد كان يوغر صدره باستمرار على ابن عمه عضد الدولة، فقبض عليه، وسمل عينيه سنة ٣٦٦هـ، ولزم بيته بمدينة واسط ولما مات عز الدولة دخل عضد الدولة بغداد، وطلب ابن بقية، وأمر بإلقائه تحت أرجل القبيلة حتى الموت، ثم صلبه، وقد كان هذا سنة ٣٦٧هـ<sup>(٢)</sup>.

أبيات، هي: الحادي عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، والسادس عشر<sup>(٤)</sup>.

### النص

عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ      لَحَقَّ أَنْتَ إِحْدَى الْمَعْجَزَاتِ  
 كَأَنَّ النَّاسَ حَوْلَكَ حِينَ قَامُوا      وَفَوْدُ نَدَاكَ أَيَّامَ الصَّلَاتِ  
 كَأَنَّكَ قَائِمٌ فِيهِمْ خَطِيْبًا      وَكُلُّهُمْ قِيَامٌ لِلصَّلَاةِ  
 مَدَدْتَ يَدَيْكَ نَحْوَهُمْ احْتِفَاءً      كَمَدَّهْمَا إِلَيْهِمْ بِالْهَبَاتِ  
 وَلَمَا ضَاقَ بَطْنُ الْأَرْضِ عَنْ أَنْ      يَضُمَّ غَلَاكَ مِنْ بَعْدِ الْمَمَاتِ  
 أَصَارُوا الْجُوَّ قَبْرَكَ وَاسْتَنَابُوا      عَنِ الْأَكْفَانِ ثَوْبَ السَّافِيَاتِ  
 لِعِظْمِكَ فِي النُّفُوسِ تَبِيْتُ تُرْعَى      بِحُقُوقِ وَحُرَّاسِ ثِقَاتِ  
 وَتُشْعَلُ عِنْدَكَ النِّيْرَانُ لَيْلًا      كَذَلِكَ كُنْتَ أَيَّامَ الْحَيَاةِ  
 رَكِبْتَ مَطِيَّةً مِنْ قَبْلِ زَيْدٍ<sup>(\*)</sup>      عَلاهَا فِي السَّنِينَ الْمَاضِيَاتِ  
 وَتَلَكَ فَضِيْلَةً فِيهَا تَأْسٌ      تُبَاعِدُ عَنْكَ تَعْيِيرَ الْعُدَاةِ  
 وَلَمْ أَرْ قَبْلَ جَذْعِكَ قَطُّ جَذْعًا      تَمَكَّنَ مِنْ عِنَاقِ الْمَكْرَمَاتِ  
 أَسَأْتُ إِلَى النَّوَابِ فَاسْتَارَتْ      فَأَنْتَ قَتِيلٌ ثَارَ النَّائِبَاتِ  
 وَكُنْتُ تُجَيْرُ مِنْ صَرْفِ اللَّيَالِي      فَعَادَ مَطَالِبًا لَكَ بِالْتَّرَاتِ  
 وَصَيَّرَ دَهْرُكَ الْإِحْسَانَ فِيهِ      إِلَيْنَا مِنْ عَظِيمِ السِّيَرَاتِ

(\*) زيد المقصود هنا هو: أبو الحسين، زيد بن زين العابدين، علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب عليه السلام، ظهر في أيام هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢ هـ، ودعا لنفسه، فأرسل له يوسف بن عمر الثقفي والي العراقين جيشًا على رأسه العباس المرّي، فقتل وصلب في الكوفة، وقصته وردت مع القصيدة في وفيات الأعيان.

وكنت لمعشر سعدًا فلما مضيت تفرقوا بالمنحسات  
 غليلٌ باطنٌ لك في فؤادي يُخَفِّفُ بالدموع الجارياتِ  
 ولو أني قَدَرْتُ على قيامٍ لفرضِكَ والحقوقِ الواجباتِ  
 ملأْتُ الأرضَ من نظمِ القوافي ونحْتُ بها خلافَ النائحِ  
 ولكني أُصَبِّرُ عنك نفسي مخافة أن أُعَدَّ من الجنَّةِ  
 وما لك تربة فأقول تُسقى لأنك نَصَبَ هَطْلِ الهاطلاتِ  
 عليك تحية الرِّحْمَنِ تترى برِّحَمَاتِ غوادٍ رائحاتِ

**تركيب القصيدة العام:**

نستطيع القول إن قصيدة ابن الأنباري في رثاء ابن بقية تقوم على مستويين اثنين من طبقات ردة الفعل والتأثر هما :

**أ- ردة الفعل الأولى:** وهي ذات وتيرة عالية في الإباء والشموخ والرفض والتحدي لكل مشاهد الصلب والموت في حالة ابن بقية المرفوع على الأعواد، وقد طال نفس الشاعر فيها، فاستغرقت من القصيدة خمسة عشر بيتًا، وهي الأولى على الترتيب، ومبدأها هذا المطلع السامق :

عُلُوٌّ في الحياة وفي الممات لَحَقُّ أَنْتِ إِحْدَى الْمُعْجَزَاتِ  
 ومنتهاها قوله:

وكنت لمعشر سعدًا فلما مضيت تفرقوا بالمنحسات

**ب- ردة الفعل الثانية:** وهي ذات وتيرة عاطفية مأزومة مكبوتة، فيها حزن دفين يمور مورًا بين ضلوع الشاعر، وفيها اعتذار حسن من الشاعر عن تقصيره بحق صديقه ابن بقية، ثم أتبع اعتذاره دعاء مخلصًا صادقًا، وقد شغل

هذا الجزء، الأبيات الستة الأخيرة من القصيدة، ومبدؤها :

غليلٌ باطِرٌ لك في فؤادي يخفُّف بالدموع الجاريات  
ومنتهاها قوله:

عليك تحيةُ الرحمن تترى برحمتِ غوادٍ رائحات  
ولعل من الجدير ملاحظته على طبيعة ردة الفعل هنا، أنها جاءت  
معاكسة للمعهود في مواقف الحزن والتأثر، فالمألوف في غالب مواقف التأثر  
هو البكاء والدموع، وهذا ما سنعالجه في هذا البيت تحت عنوان مستقل  
هو «العاطفة».

ولكن الشاعر في هذه القصيدة بدا واعياً متماسكاً، وذا قدرة عجيبة في  
قراءة مشاهد المصلوب وتأويلها بأروع الدلالات وأجملها، وهو ما سنعالجه في  
هذا البحث تحت عنوان «الخيال» .

ولكننا لن نسير على ترتيب القصيدة فسنبدأ حديثنا عن العاطفة أولاً، ثم  
عن الخيال ثانياً لأن العاطفة هي مبعث الخيال ومادته، وجناحه الذي يخلِّق به.

### العاطفة الإنسانية في مواجهة الموت :

الموت حقيقة واقعة، وحدث معيش، والناس، كل الناس تؤمن بالموت، وتعرف  
أنها على موعد معه، وقد كان «فولتير» يقول: إن الجنس البشري هو الجنس الوحيد  
الذي يعرف أنه سيموت، وهو يعرف ذلك من خلال التجربة<sup>(٥)</sup>.

والذي لا شك فيه، أن الموت يشكّل تهديداً لرغبة الإنسان الجارحة في  
البقاء، ويمثّل تناقضاً حاداً مع ميل الإنسان نحو الخلود والأبدية، كما أن نسيان  
الموت، أو تناسيه، يعدُّ بالنسبة للإنسان خيانة عظيمة لذاته الشخصية<sup>(٦)</sup>.

ولقد بقيت فكرة العدم المقترنة بالموت مصدر قلق وحيرة للإنسان عبر الأزمنة، وسعى الفكر الإنساني للخروج من هذه المتاهة عبر وسائل ومُسَوِّغات عقلية مختلفة، كما هو الحال في الفكر الأسطوري، الذي هو شكل من أشكال الحياة الأخرى، وخصوصية وجودية، داخل ليل سرمدي حالك<sup>(٧)</sup>.

ولعل صدمة الإنسان العاطفية الأولى مع الموت ترجع إلى جلجامش، الذي صرخ مفعجاً أمام حقيقة ما رآه من موت صديقه «أنكيديو» قائلاً: الويل لقلبي كم أخاف الموت...! هل سأموت مثل «أنكيديو»؟ ! سأذهب إلى «أوتانا بشتم» فهو الوحيد الذي نجح من الطوفان، وكانت له الحياة الأبدية، ولا بدّ له أن يُدلّني على الطريق<sup>(٨)</sup>.

لاشك أن صرخة «جلجامش» أمام حدث الموت الجلل الذي لحق بصديقه «أنكيديو» قد تكرر عبر الزمن بأشكال وصور عديدة، وهاهي الصرخة تتكرر في مشهد قريب على لسان «ابن الأنباري» متفجعاً على صديقه «ابن بقية»، وقد هاله منظر الصلب والرفع على الأعواد، فرجع عقيرته قائلاً:

علوّ في الحياة وفي الممات لحق أنت إحدى المعجزات

ولئن سعى «جلجامش» في درب البحث عن الخلود لنفسه، بعدما رأى صديقه «أنكيديو» رهين الموت، فإن ابن الأنباري سعى في درب الشعر، فحقق خلوداً معنوياً له ولصديقه ابن بقية بهذه القصيدة الذائعة الصيت، وتمكّن بجدارة أن يغيّر مفهوم الموت الذي هو فناء وعدم، إلى حياة وبقاء، وشهرة، وشوق دائم، حتى جعل القاتل يتمنى بعد سماعه القصيدة، أن يكون هو المقتول<sup>(٩)</sup>، وصدقت «سيمون دي بوفوار»، عندما قالت يوماً: إن الإنسان لا يمكن أن ينهيه الموت أو يقف في وجهه<sup>(١٠)</sup>.

### العاطفة في القصيدة:

الأداء اللغوي، هو قسيم الوجدان، ومجسّد المشاعر في ثنايا النص<sup>(١١)</sup>، والقصيدة في مجملها ترجمة دقيقة، وتطبيق حي نابض للقول السابق، ففيها تتفاعل عواطف متضاربة، هي مزيج معقد مكبوت من الحسرة والندم على الصديق المصلوب المرثي، والنقمة والسخط والغضب على القاتل « العدو المشترك»، يعبر عن هذا قول ابن الأنباري معتذراً لصديقه المصلوب:

غليلٌ باطنٌ لك في فؤادي يُخَفِّفُ بالدموع الجاريات  
ولو أني قدرت على قيامٍ لفرضك والحقوق الواجبات  
ملأْتُ الأرضَ من نظمِ القوافي ونُحْتُ بها خلافَ النائحاتِ  
ولكّي أصبرّ عنك نفسي مخافةً أن أُعدَّ من الجنّةِ

لقد امتلكت هذه القصيدة شحنة عاطفية عالية التوتر، حتى قيل بحقها قديماً: إنه لم يعمل في بابها مثلها<sup>(١٢)</sup>.

يُعرّف «نزار قباني» القصيدة الشعرية بأنها طعنة جميلة ينزف منها الشاعر والمتلقي<sup>(١٣)</sup>. وهو تعريف شاعري من شاعر يدرك بإتقان بالغ مفهوم الشعر، ولعل هذه القصيدة، هي خير تفسير لما يقصده نزار قباني من تعريفه السابق، فقد روى ابن خلكان عن ابن عساكر، أن ابن الأنباري بعد أن كتب هذه القصيدة، رماها في شوارع بغداد واختفى، فتداولها الناس، فلما بلغت عضد الدولة، قاتل «ابن بقية» تمّنى أن يكون هو المقتول المصلوب<sup>(١٤)</sup>. فالطاعن يتمنى أن يكون هو المطعون، بعد أن تلقى هذه القصيدة التي هي بحق طعنة لكنها جميلة...



هذه القصيدة، عجيبة العاطفة، غريبة التأثير، ألزمتنا الشاعر مشاركته عاطفته إلزاماً<sup>(١٥)</sup> فما إن نسمعها، أو نقرأها، حتى تسري في عروقنا شحنتها العاطفية العالية التوتر، فنشعر أنها تغسلنا من الداخل، وتُطهِّرنا، وتبعث فينا إحساساً بالتوازن والارتياح، وهذه مهمة الفن الحق فهو تنفيس عن المشاعر، يحدث لطرفين<sup>(١٦)</sup>.

هذه القصيدة - وإن سقطت على خدها دمة - فقد ظلت عاطفتها عجيبة، حرقت تقاليد شعر الرثاء، فبكاؤها فيه كبرياء وعزة، وألمها صابر يتلظى، وعباراتها لها أنين، وكلماتها لها لهيب، وحروفها تشع بريق صدمة وإخلاص يعانق الروح.

العاطفة في هذه القصيدة مثل «جارية هارون الرشيد» «دنانير» البرمكية، التي غنَّت وهي تبكي، وبكت وهي تغني، ووراء هذا الكبرياء الشامخ، والرفض المتعالي، والسخط المتوهج، حزن عميق مؤر .

إنها عاطفة حزينة جداً... لكنه حزن معجون بطعم الصبر والكبرياء إنه مثل حزن محمود سامي البارودي :

يسرق الدَّمع في الجيوب حياءً و«بها» ما «بها» من الأشواق  
إنها عاطفة تتجلَّد كي تُري الشامتين أنها لرب الدهر لا تتضعضع .

### الخيال في القصيدة :

الخيال أساس الشعر، وطاقته الحيوية النَّفاذة، به يرى الشاعر ما لا يراه الإنسان العادي، وهو لب القصيدة ومعدنها .

وليس الخيال خطوطاً تتلاقى وأصابعاً تُطلَى، بل هو روح تسري،

وجوهر يترسخ، فقد تكون القصيدة مألوفة بالتشابه، لكن دون حيوية، وقد تكون القصيدة خالية من الصور، ولكن الخيال فيها يشعُّ ساطعاً قوياً .

يورد «عبد الرحمن شكري» في حديث له مقطوعة شعرية لشاعر يرثي فيها زوجته، وقد خلّفت وراءها طفلة يتيمة فيقول:

فلقد تركتِ صغيرةً مرحومةً لم تدرِ ما جزعُ عليك فتجزعُ  
فقدتِ شمائلَ من لزامكِ حلوةً فتبيتُ تُسهر أهلها وتفجعُ  
وإذا سمعتُ أنينها في ليلها طفقتُ عليكِ شؤونُ عيني تدمعُ  
ثم يُعقّب «عبد الرحمن شكري» على الخيال في هذه الأبيات بقوله: ...  
فهو لم يعلمك شيئاً جديداً، ولكنه ذكر الحقيقة، وهذا أجلُّ التّخيل<sup>(١٧)</sup>.

إذاً، فالخيال يتعدى الرسم بالكلمات، إلى قوة الإيحاء، وتحفيز الكوامن الداخلية للنفس، وتحريك عدسة العين الداخلية، التي لها حرية الرسم واللون فيما تفرضه الفكرة على العاطفة والعقل .

وإذا ما نظرنا في القصيدة التي بين أيدينا، وجدنا أن ما صنع الخيال فيها أمران هما: ما رسمه الشاعر من صور جميلة رائعة لفكرة حزينية، وما تستدعيه فكرة الموت مجردة من بواعث الخيال، فكيف وقد جاء الموت مقروناً بالصلب والرفع على الأعواد ! .

لقد اجتمع للخيال في هذه القصيدة «شاعرية» الفكرة المجردة والتهاهما، وجمال اللوحات التي أبدعها خيال الشاعر على وقود العاطفة المتأحجة المتسعة، فبدا لنا وجدان الشاعر مرسومًا بالحرف والخط واللون والطعم، وغدت عين الشاعر قلبًا ينبض، وتحوّل قلب الشاعر عينًا نجلاء محدقة

بهذا الصديق المصلوب، وحالت القصيدة كاملة «تَمِيمَةً» تُخَطَّبُ وَدَّنا، وتسحرنا بشاشاتها الصغيرة<sup>(١٨)</sup>، كما يقول «رولان بارت» .

إن «الشاشات الصغيرة» التي قصدها «بارت» هي المصطلح العلمي المعاصر الذي تفرضه التكنولوجيا اليوم على مفهوم الصورة والخيال في النصوص، وهي ذات أهمية بالغة في التعبير عن الفكر في مجال الشعر، وغير الشعر، ولها في الشعر مكانة خاصة.

ولئن رأى «كأنت» أن الشعر هو «التفكير بالصور»<sup>(١٩)</sup>، بطريقة فنية، وهذا تعريف رائع يعبر عن متانة العلاقة بين الفكر والفن، وعمق عملية الصياغة الشعرية في ذات الشاعر الحقيقي - فإن «هازلت» - رآه لغة الخيال العاطفة<sup>(٢٠)</sup>، معاً التي تُترجم وتَبَيَّنُ ببلاغة عن التفاعل بين الشعر والأحاسيس والعقل المُخلَّق في سماء الفن والجمال .

ولعل «سارتر» هو الشخص الذي أجاب عن وظيفة الخيال النفسية، وذلك حين رأى فيه وسيلة للمباعدة بين الإنسان والواقع، إذ يهرب الإنسان من خلاله إلى عالم الحرية، البديل لعالم الواقع بما له من قدرة على الرفض ونفي الواقع<sup>(٢١)</sup>.

فلقد تجلَّى الرفض في هذه القصيدة للموت والصلب بشكل طاغٍ لافت، وهكذا هو الشعر فما الشعر عند «نزار قباني» إلا عمل من أعمال الرفض، لا القبول، وليس الشعر عنده مواطناً من مواطني مدينة «نعم» بل هو مواطن من مواطني مدينة «لا»<sup>(٢٢)</sup>.

**الرفض في القصيدة :**

المواجهة بين العاطفة والخيال في موضوع الموت، موت الأصدقاء و«صَلْبِهِمْ» لها صدى خاص بارز تتمثل بالإنكار والرفض الحاد الصارخ، فلقد ارتسمت على النص كاملاً، «لا» كبيرة متأبئة رافضة، رسمها الشاعر «ابن الأنباري» عندما شاهد صديقه «ابن بقية» مرفوعاً على الصليب، حتى بدت القصيدة كاملة صرخة رفض يصرخها الشاعر في وجه الموت الذي يعاينه ويعانيه.

يمكننا تبين تفاصيل الرفض التي جاءت في القصيدة، عبر الوسائل التالية التي عمد الشاعر إلى استعمالها من خلال يد الشعر الماهرة في إعادة تشكيل الزمن، وترتيب الأشياء، كما يقول نزار قباني<sup>(٢٣)</sup>.

#### ١- الرفض بالصورة: بمعنى رؤية الصورة على خلاف ظاهرها المشاهد

بالعين المجردة، وقد تجلّى ذلك بالمشاهد التالية :

أ - صورة المصلوب المرفوع على الأعواد: لا تبدو في نظر الشاعر للإهانة والتشهير، كما هو الغرض من الصّلب في أساس عمله، بل هو احترام وتقدير ورفعة، ولهذا قلب الشاعر الصورة فوراً، ومن مطلع القصيدة قائلاً:

علو في الحياة وفي الممات لحق أنت إحدى المعجزات  
وحتى يكون الشاعر مقنعاً في قلب صورته، جعل هذا الأمر متعلقاً بالمعجزات الخارقة للعادة والمألوف، فإذا كان قانون الموت يستوجب الدفن في بطن الأرض لمن يموت، فإن ابن بقية «لا» ينطبق عليه هذا الناموس، لأن الدفن في التراب هبوط ونزول وغياب، وابن بقية لا تليق بمكانته هذه الأمور الهابطة، فلا بد من الارتفاع بعد الموت ارتفاعاً يليق بمكانته في الدنيا، ولذلك فالصلب تكريم وتعظيم، لا عقوبة وتنكيل .

### ب - صورة النَّاس حول ابن بقية المصلوب :صوّر ابن الأنباري

الناس المحيطين بابن بقية مصلوبًا بثلاث صور أوَّلها على غير ظاهرها .

#### ١- الصورة الأولى: وقد رأهم فيها طلاب نواله، يسألونه العطايا كما

كانوا يقصدونه في حياته :

كأنَّ الناس حولك حين قاموا وفود نذاك أيام الصَّلَات

#### ٢- الصورة الثانية: وفيها رأهم مصلِّين يصغون إليه وهو خطيب

يعتلي أعواد الصلب منبرًا :

كأنك قائم فيهم خطيبًا وكلهم قيام للصلاة

#### ٣- الصورة الثالثة: رأى الشاعر فيها جند «عضد الدولة» المحيطين

بهذا المصلوب حرَّاس شرف وتعظيم له، يحمونه من كل مكروه، ويحافظون عليه من كل سوء، كما أن النار التي كانوا يشعلونها حوله ليلاً، هي علامة كرمه، ونداء الكرماء الصامت في ليل الصحراء :

لِعَظْمِكَ فِي النِّفُوسِ تَبَيَّتْ تُرْعَى بِحُفَّازٍ وَحُرَّاسِ ثِقَاتِ

وَتُشْعَلُ عِنْدَكَ النَّيْرَانُ لَيْلًا كَذَلِكَ كُنْتَ أَيَّامَ الْحَيَاةِ

#### ج - صورة المصلوب ممدود اليدين: يدا ابن بقية المفتوحتان

والمسمرتان على خشبة الصلب بدتا للشاعر حركة إرادية مقصودة يقوم بهما المصلوب مرحَّبًا بِقُصَّادِهِ وَرُؤَاةِ وَضِيُوفِهِ، يقضي بهما حاجاتهم كما كان يفعل في حياته الدنيا :

مَدَدْتَ يَدَيْكَ نَحْوَهُمْ احْتِفَاءً كَمَدَّهْمَا إِلَيْهِمْ بِالْهَيَاتِ

#### ٢- الرفض بالتأويل: ونعني به، الخروج بتفسير مشرَّف، لأمر

ظاهرها غير باطنها، أو بتقدم الأعدار مثل :

### أ - تأويل سبب الصلب وعدم التكفين :

الشاعر ماهر في التأويل والتسوية، بارع في إيجاد المخارج، قادر على التأثير والإقناع، تدفعه عاطفة وقادة صادقة، حتى نجح في دفع القاتل إلى تمّي أن يكون هو المقتول .

إنّ صلب ابن بقية، ونشر جسده في الجو من دون كفن كما يُفعل مع الأموات العاديين، ليس عقاباً له، بل ضيق في مساحة الأرض التي لم تعد قادرة على استيعاب جسد هذا العظيم، ثم إن القماش لا يليق بقيمة هذا الميت، لذلك عمدوا إلى دفنه في الجو وتكفينه بغير الرياح:

ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضم علاك من بعد الممات  
أصاروا الجو قبرك واستنابوا عن الأكفان ثوب السافيات

### ب - تأويل سبب القتل :

إن كانت الناس تُقتل انتقاماً منها لأعمال سيئة ارتكبتها، فإن « ابن بقية» قتله أعماله الصالحة الطيبة التي أغاضت النواب، لأنها عطلتها عن عملها، وحدت من تأثيرها السيئ، وهي التي لا تريد أن يقف في وجهها واقف؛ ولذلك حشدت عليه قواتها لتحرر من هذا الخطر الذي يُضيق عليها، ويُحفف من شدتها:

أسأت إلى النواب فاستثارت فأنت قتيل ثار النائبات  
وكنت تجير من صرف الليالي فعاد مطالباً لك بالترات

لقد كان « ابن بقية» يُعين على نواب الدهر، ويمنع من استفحالها، ويصدّها عن التمكن من الفتك بضحاياها، وإكمال أدوارها في إيذاء الناس،

وهذه أعمال محمودة في أزمنة ليست كزمانه الرديء، الذي انعكست فيه القيم، وتبدلت المفاهيم حتى صار الإحسان فيه إساءة .

وصير دهر ك الإحسان فيه إلينا من عظيم السيئات

### ج - تأويل سبب التقصير :

يرى الشاعر نفسه مقصراً بحق صديقه الحميم « ابن بقية»، فيعلن عدم

قدرته على إعلان حقيقة مشاعره بسبب خوفه من العقاب من العدو المشترك:

غليلٌ باطنٌ لك في فؤادي يُخفّفُ ف بالدموع الجارياتِ  
ولو أني قدّرتُ على قيامٍ لفرضك والحقوق الواجباتِ  
ملائتُ الأرضَ من نظم القوافي ونُحْتُ بها خلافَ النائحاتِ  
ولكني أصبّرُ عنك نفسي مخافةً أن أعدّ من الجناةِ

### د - التأويل في طبيعة الدعاء:

من عادة الداعين للأموات أن يدعوا لهم بالسقيا، لكن الشاعر اعتذر

من عدم دعائه بهذا التقليد؛ لأن الدفن هنا غير تقليدي، ولذلك قال:

ومالك تربةٌ فأقولُ تُسقى لأنك نَصَبُ هَطْلِ الهاطلاتِ  
عليك تحيةُ الرّحمنِ تترى برّحاتِ غوادٍ رائحاتِ

وهكذا، فقد سيطرت على الشاعر فكرة «الرفض» فقلب الأشياء، وعكس

التأويل، لكن بفن ووعي وإدراك مذهل، مستفيداً في كل هذا من وظيفة الخيال

النفسية، فكان بحق أمّودج الوفاء، وعنوان الصداقة ورمز الأخلاق.

### الخاتمة:

الشعر محكوم بقدرته على التّميّز، فلربما تشابه القول في المحتوى، وهذا

ليس ذا قيمة، بل القيمة في اختلاف التعبير، وخصوصية الأداء، وهذه القصيدة الرائعة تدفعنا إلى السؤال عن ماذا قال الشاعر، وكيف قاله مع سعة ميدان الرثاء واتساعه، فالقصيدة رثائية، لكنها ليست كلمات مرصوفة، ولا دموعًا سخينة مذروفة، بل هي حروف من إحساس، وخيال من أعصاب تقاوم فكرة العدم، تحوّل الموت فيها إلى حياة وخلود وشهرة، وصار الاستسلام للموت تحديًا ورفضًا.

لقد كسرت هذه القصيدة مفهوم الموت والصلب، وأعدت تشكيلهما من جديد بصورة مذهلة دفعت القاتل بعد سماعه لها أن يتمنى لو كان هو المقتول !

إنها قصيدة مثيرة في فنها، وموضوعها، إنها شعر راق، وصدقة حقة، ووفاء مُؤثّر، وخلق نادر .



## الهوامش

- ١- وفيات الأعيان. ابن خلكان. تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت. ج ٥، ص: (١٢٢).
- ٢- المصدر السابق، ص (١٢١).
- ٣- المصدر السابق، ص (١١٨ - ١١٩).
- ٤- وفيات الأعيان. ابن خلكان ج ٥ ص (١٢٠ - ١٢١) وانظر بيتمة الدهر. الثعالبي دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٣، ج ٢، ص (٤٣٩ - ٤٤٠) وقد انفرد صاحب البيتمة بتسمية ابن بقية بمحمد بن القاسم وكتّاه أبا بكر. وانظر كتاب أحسن ما سمعت. الثعالبي. تحقيق محمد إبراهيم سليم، دار الطلائع. القاهرة، ١٩٩٢، ص (١٦٥ - ١٦٧).
- ٥- الموت في الفكر الغربي، جاك شوردن، ترجمة كامل يوسف حسين، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٤، ص (٨).
- ٦- مشكلة الحياة. زكريا إبراهيم، دار مصر للطباعة، بدون طبعة أو تاريخ، ص (٢٠٥).
- ٧- الموت والمغامرة الروحية، محمد منير منصور، دار الحكمة - دمشق، بيروت، ١٩٨٧، ص (١٤).
- ٨- المرجع السابق، (ص ١٤) وانظر ملحمة جلجامش، ترجمة سامي سعيد الأحمد، دار الجليل - بيروت، ١٩٨٤، ص (٣٨٤).
- ٩- وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج ٥، ص (١٢١).
- ١٠- مقالات فلسفية حول القيم والحضارة. أميرة حلمي مطر، مكتبة مدبولي،

- القاهرة، ص: (١٠). وانظر مطول الإنسان روح وجسد، رؤوف عيد، مطبعة نهضة مصر، ط٣، ج١، ص (٦٣، ٦٧) .
- ١١- مداخل لتحليل النص الأدبي، إشراف عز الدين إسماعيل، مطابع المنار العربي، الجزيرة، ط١، ١٩٩٩، ص (٥)، بحث رجاء عيد .
- ١٢- وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج٥، ص (١٢٣).
- ١٣- ما هو الشعر ، نزار قباني ، منشورات نزار قباني، بيروت، ط١، ١٩٨١، ص (٤٩).
- ١٤- وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج٥، ص (١٢١).
- ١٥- نظرية الأدب رنية ويلك وأوستن وارين، تعريب عادل سلامة، دار المريخ، السعودية، ١٩٩٢، ص: (٥٢).
- ١٦- معنى الفن، هيرت ريد. ترجمة سامي خشبة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ص: (٥٥).
- ١٧- المجموعة الكاملة لأعمال عبد الرحمن شكري الشرية، تحقيق زكي كنانة، مكتبة النجاح، نابلس، ط١، ١٩٨١، ص(٥٨٩ - ٥٩٠).
- ١٨- لذة النص، رولان بارت، ترجمة فؤاد صفا، دار توبقال، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٨، ص (٤٤).
- ١٩- النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، ص (٣٨٨)
- ٢٠- آراء حول قسّم الشعر وجديده، طلال الحديثي، كتاب العربي عدد١٣، ١٩٨٦، ص (٩٥).
- ٢١- مقالات فلسفية حول القيم والحضارة، أميرة حلمي مطر، ص (٦٣).
- ٢٢- ما هو الشعر، نزار قباني، ص (٤٦).
- ٢٣- المرجع السابق، ص (٣٤).